

العراق بين مطفرة النفوذ الأميركي وسدان التبعية الإقليمية



منذ عام ٢٠٠٣ وجد العراق نفسه في قلب مشروع دولي يُراد من خلاله إعادة تشكيله وفق مقاسات لا تشبه تاريخه. لقد أعادت أمريكا رسم خارطة السلطة، فصار العراق بلدًا بلا سيادة، يتحرك قراره الاستراتيجي ضمن إطار صُنعت سلفاً في غرف السياسة الأمريكية، حتى أصبحت الملفات الخارجية والتحالفات ومفاصل القرار محكمة بسفف لا يمكن تجاوزه دون موافقة واشنطن. وسط هذه المعادلة المعقدة ولدت قوى سياسية وعسكرية كانت جزءاً من منظومة ما بعد الاحتلال، سُميت داخل المسار الذي هندسته أمريكا نفسها. وكان "حزب الله" أحد مكونات هذا النظام، يتحرك داخل الإطار الذي رُسم للدولة وللنظام السياسي الجديد. لكن المفارقة أن الجهة التي أسست قواعد اللعبة تسعى اليوم إلى تحجيم أحد اللاعبين الذين سمحت بوجودهم، وكأنها تريد إعادة كتابة قواعد النظام وفق ميزان مصالحها المستجدة.

فهي تُطلق العقوبات كما تشاء، وتفرض القرارات بمعزل عن النظام الدولي، وتحرك في المشهد العراقي لا كدولة بين الدول، بل كقوة تعتبر نفسها فوق النظام الدولي، تصاغ القرارات على مقاسها، وتنزع الشرعية من تشاء، وتنزعها من من تشاء. في مشهد أصبح أقرب إلى حكم أحادي لا يعترف إلا بمصالحة. هذه الأزدواجية جعلت من العراق ساحةً مفتوحةً للتجارب، ودولٌ تُختبر فيها السياسات الدولية كأنه مختبر جيوسياسي، ليقى شعبه يدفع الثمن الباهظ من استقراره وثرواته ومستقبله. إن أخطر ما يواجه العراق اليوم ليس صراعات الأحزاب ولا اختلاف المكونات، بل استمرار عقلية التبعية التي تأسس عليها المشهد بعد عام ٢٠٠٣، والتي تتجدد كلما بقي القرار مرهناً للضغوط الخارجية أو محاصراً بمعادلات مفروضة. لذلك لا يمكن لبلد أن ينهض ما لم يخرج من عباءة التبعية التي جعلت قراره مرهناً بالخارج. إن الشعوب وحدها تملك القدرة على تغيير هذا الواقع إذا ما أرادت التغيير؛ فهي وحدها من يدفع الثمن، وهي من تستطيع حمل مشروع التحرر الحقيقي والخروج من التبعية القدرة.

لقد آن لهذه الشعوب أن تخرج من عزلتها، وأن تفك خارج الصندوق، لتقول: لا للتبعية، لا للقيود، لا للقرار المستورد. آن لها أن تستعيد دورها، وتفرض إرادتها، وتستعيد وعيها المغيب لتصنع سيادة من الداخل لا من الخارج.

لقد حولت أمريكا العراق إلى بلد منزوع السيادة، بلد أفلته الأزمات، وجعلت منه ساحة نفوذ لا دولة تملك قرارها. وقد فرض الغرب قيوداً ثقيلة على رقاب الشعوب التي ابُتليت بالتبعية والحكام الخونة، ليضمن السيطرة و يجعل السيادة حلمًا مؤجلًا. لكن الشعوب الحية لا تستسلم لقرارات حكام نصبهم الغرب نواطير لحماية مصالحه. وقد آن الأوان أن تستعيد هذه الشعوب مجدها المسلوب: مجده الرشيد والمعتصم، مجده السيادة التي لا تُمنع بل تُنتزع. اليوم نحن بحاجة إلى أن نستعيد روح الرشيد، وعزّة المعتصم، وهيبة من صنعوا تاريخ الأمة؛ أن نستعيد مجدها المسلوب، وأن نرفض قيود التبعية الغربية التي تسلطت على رقاب الشعوب ظلماً وعدواناً.

فالمجدد ليس شعاراً، بل عهد يتنتظر من يجده، والسيادة ليست قولًا بل فعل تصنعه الشعوب. وهذا الرائد الذي لا يكذب أهله، قد نذر نفسه للعمل من أجل استعادة هذا المجد المسلوب، فهلّم نركب سفينة النجاة التي بها تستعيدون كرامتكم الضائعة، ولننهض مكبّرين: نحن أبناء الرشيد، نحن أبناء المعتصم، ولن تكون تبعاً لأحد.

**كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير
مؤنس حميد – ولاية العراق**